الباب السادس

في التاريخ

(لابد أن ينتهي العالم إلى تآخي العلم
والدين على سنة القرآن والذكر الحكيم).

محمد عبده

انتحب المشرقان في أقصى الأرض بإندونيسيا والهند وفي أدناها بفارس وسورية والعراق والسودان، وكل مكان يتلى فيه قرآن، وقامت الجمعيات والكتابة والقراء بتحية ذكرى الإمام. وجاء يوم التأبين بمصر فأبنه أصحاب أعظم الأسماء إلا سعدا والهلباوي كانا بأوربا.

وتقاسم الكلام في نواح ست من نشاط الإمام متخصصون ستة لم يجتمع أمثالهم لموقف مماثل في تاريخ مصر، وسيتركون الدنيا على ترتيبهم في الكلام كما لاحظ حافظ إبراهيم في بائيته الشهيرة فيما بعد الشيخ أحمد أبو خطوة وحسن عاصم وحسن عبد الرازق وقاسم وحفني ناصف وحافظ إبراهيم، نختار من خطبهم بعض عبارات قاسم لما فيها من كلمات توزن حروفها وتعد، وذوب نفس صهرتها الرحمة، ومن التشوف لنشوء شعور عام تجتمع عليه الأمة. وهي خصائص مشتركة بينه وبين الإمام. ومذهبه كما يصفه رشيد رضا (تربية الأمة) أو كما قال حسن عاصم (تربية الرأي العام فيها).

ومن انشغال قاسم بالاجتماع على شعور عام كانت علاقته الوثقى بسعد، حيث بشريات الزعامة، وكان خفقان قلبه يوم دنشواي [١٠٤] ويوم فقدت مصر مصطفى كامل [١٠٥]، ومن قبل ذلك اليوم مات الإمام. ففيه يقول:

---

(١٠٤) نفذ الحكم الصادر في ٢٧ يونية سنة ١٩٠٦ في اليوم التالي في البلدة وأعدم أربعة وحكم بالأشغال الشاقة على تسعة وحبس وجلد ثمانية لموت ضابط إنجليزي بضربة شمس في القرية وإصابة زملائه بجراح من حجارة قذفهم بها الأهالي لصيدهم حمامهم ببنادقهم، مع إصابة امرأة وإشعال النار في الجرن، كتب قاسم عن الشعور العام في ذلك اليوم (رأيت عند كل شخص تقابلت معه قلبا مجروحا وزورا مخنوقا ودهشة عصبية بادية ي الأيدي والأصوات. كان الحزن على جميع الوجوه. حزن ساكت مستسلم للقوة. مختلط بشيء

(كان يجذبه الخير كما يجذب المغناطيس الحديد فيندفع إليه. ويسعى إلى كل نفع للغير عام أو خاص. كان ملجأ الفقراء واليتامى والمظلومين والمرفوتين، والمصابين بأي مصيبة كانت، وأهل الأزهر، الذين هم أكثر الناس احتياجا إلى المساعدة، لأنهم في وسط المدنية الحاضرة المتأخرون العاجزون عن الدفاع عن أنفسهم في ميدان الحياة الجديدة.. بل كان يسعى لصاحب الحاجة وهو يعلم أنه أساء إليه أو قدح فيه أو تحالف مع خصومه في ترويج عبارات القذف والنميمة التي لم تنقطع عنه يوما في حياته..

كان الأستاذ يرى أن الشر لا فائدة له مطلقا وأن التسامح والعفو عن كل شيء وكل شخص هو أحسن ما يعالج به السوء ويفيد في إصلاح فاعله..

إن إمام مصر كان محركا بقوة فوق الاعتيادية. وإن عقله ملآن بالفكر إلى حد أنه كان لا يسعه كله، إلى حد أنه كان يفيض منه بالرغم. وإن قلبه كان ملتهبا بحب وطنه فلا يستريح إلا وهو مشغول به وبسيادته وبمستقبله.

إنه كان مثل جميع نوابغ الرجال لا يبالي الألم الذي يأتيه بسبب أمنيته التي كان يعزها.. وكم من مرة سمعته يؤكد بأنه صمم على ألا يتدخل في شيء من هذا القبيل ثم رأيته في الغد منغمسا فيه أكثر مما كان لأنه كان يعكس ما يراه عموم المصريين في أنفسهم، عنده أمل لا يزعزعه شيء في إصلاح أمته).

ويقول:

من الدهشة والذهول ترى الناس يتكلمون بصوت خافت وعبارات متقطعة وهيئة بائسة. منظرهم يشبه قوما مجتمعين في دار ميت. كأنما كانت أرواح المشنوقين تطوف في كل مكان بالمدينة. ولكن هذا الاتحاد في الشعور بقي مكتوما في النفوس لم يجد سبيلا يخرج منه فلم يبرز بروزا واضحا حتى يراه كل إنسان).

(١٠٥) قال بين ما قال: (١١ فبراير سنة ١٩٠٨ يوم الاحتفال بجنازة مصطفى كامل. هي المرة الثانية التي رأيت فيها قلب مصر يخفق المرة الأولى كانت يوم تنفيذ حكم دنشواي. أما في يوم الاحتفال بجنازة صاحب اللواء فقد ظهر ذلك الشعور ساطعا في قوة جماله. وانفجر بفرقعة هائلة سمع دويها في العاصمة ووصل دويها إلى جميع أنحاء القطر. هذا الإحساس الجديد. هذا المولود الحديث الذي خرج من أحشاء الأمة، من دمها وأعصابها، هو الأمل الذي يتبسم في وجوهنا البائسة، هو الشعاع الذي يرسل حرارته إلى قلوبنا الجامدة الباردة. هو المستقبل) – مات قاسم بعد مصطفى كامل بخمسة وسبعين يوما، وكانوا ينتظرونه في محكمة الاستئناف.

(لقد رأينا مدة مرض الإمام ويوم وفاته حركة في الأمة لم يسبق لها مثيل في تاريخ حياتها.

تتذكرون يوم السفر إلى الإسكندرية حيث كانت المئات من أصدقائه ومعارفه وزملائه وتلاميذه يودعونه في المحطة وجميعهم في سكون وقلق. رأينا كثيرا من العلماء والذوات والأمراء مرضو وماتوا ولم نشاهد أن عددا يذكر من الأمة غير أقاربهم وأصحابهم اهتم لحادث من تلك الحوادث. لكن أمتنا قد شعرت في هذه الدفعة بحسن غيرتها أنها فقدت رجلا كان عائشا لها أكثر من كونه عائشا لنفسه ولعائلته، هذا هو سر الشعور الجديد الذي رأيناه لأول مرة في الأمة المصرية.. فكان هذا الحادث العظيم مبدأ الاتحاد والتضامن بين عدد كبير من الأمة المصرية جمعهم إحساس واحد وهذه خطوة في سبيل التقدم).

***

obeikandi.com

جمعت المراثي حرص على جمعه سعد وفتحي وبقية رجال الأسرة ورشيد رضا، ففيها أقوال ستة من عظماء القرنين التاسع عشر والعشرين للميلاد أصغرهم سنا حافظ إبراهيم شاعر النيل كما لقبه الشعب في مقابل (شاعر الأمير) شوقي. ومن عربدة الخديو يوم مات الإمام تعايا شيطان الشعر عند شوقي وتعاظم وفاء حافظ [١٠٦].

---

(١٠٦) ترجع صلة حافظ بالإمام إلى أيام كان ضابطا بالجيش يحارب في السودان ولما ظهرت له نية الإنجليز لاغتصاب السودان استقال ورجع إلى مصر سنة ١٩٠٠ وتوثقت صلته بالإمام وتلاميذه وفي طليعتهم سعد زغلول، ولما اصدر ديوانه الأول سنة ١٩٠١ قرظه مصطفى كامل في صحيفته (اللواء) ولما ظهرت ترجمته لكتاب البؤساء أثنى عليه في اللواء. وكان اشتهار بأنه شاعر الوطنية المصرية سببا في نقمة الإنجليز عليه طوال حياته.

أما اتصاله بالإمام فحال بينه وبين الخديو كما وقع للشاعر الكاظمي لما انقطعت بموت الإمام عشرة جنيهات كانت ترد إليه شهريا في مظروف مذ هاجر من العراق إلى مصر سنة ١٩٠٠ – وتوسط الشيخ علي يوسف (باشا) صاحب جريدة المؤيد لدى الخديو ليصله فقبل ثم عدل وقال علي يوسف للشيخ عبد القادر المغربي إن "بعض الناس" كان سبب عدول الخديو. ولما حدث الشيخ المغربي الكاظمي بذلك قال الكاظمي إن "بعض الناس" مقصود به شوقي فقد قال للخديو هذا شاعر محمد عبده!

يقول طه حسين عن شوقي وحافظ:

ولكن شوقي لم يبلغ ما بلغ حافظ من الرثاء ولم يحسن ما أحسن حافظ من تصوير نفس الشعب وآلامه.. فإذا بكى بكى الناس معه صادقين وجزعوا مخلصين).

ودليل طه حسين مراثي حافظ للزعماء الثلاثة محمد عبده، قاسم أمين، مصطفى كامل – ومن أبيات حافظ في قصيدته قوله:

سلام على الإسلام بعد محمد ... سلام على أيامه النضرات
لقد كنت أخشى عادي الموت قبله ... فأصبحت أخشى أن تطول حياتي

ويقول طه حسين فهذه قصيدة لا تستحق خلودها ممن قيلت فيه وحده ولا ممن قالها وحده وإنما مستمدة من الرجلين جميعا) والإمام حاضر دائما على لسان حافظ. يودع قاسم أمين بعد ثلاث سنين فيقول له:

قل للإمام إذا التقيت به ... في الجنتين بأكرم النزل
لله أيام لكم درجت ... طالت عوارفها ولم تطل

ويودع حشمت بعد عشرين عاما فيقول للرجل الذي عينه في سنة ١٩١١ رئيسا للقسم الأدبي بدار الكتب ليبقى فيه حتى سنة ١٩٣٢ عام وفاته:

أنغض الفساد رأسه يوم استقال الإمام وأسبغ الخديو عطفه على الجامدين والجهلة ليعيدوا إلى الجامع الألفي العمر شيخوخته. وارتفعت فيه ومن حوله، الأصوات المنفرة، وقدم لنا مصطفى عبد الرازق صورة مؤرخة ٣/ ٥/ ١٩٠٥ نشرتها صحيفة (الجريدة) [١٠٧] سنة ١٩١٤. قال: (أصبحت لا أجد لما أحضره من دروس الأزهر طعما. ذهبت إلى جامع الحسين وجلست قريبا من كرسي الدرس.. قرأ عبارة المتن (أحمد الله أولا وثانيا). كانت الساعة ٩ عربي فما برح الشيخ يقتل هذه الجملة المسكينة بحثا وتحقيقا حتى أذن المؤذن المغرب (الساعة ١٢ عربي)... قلت يا سيدنا الشيخ ألا يجوز أن يكون كل مراد المصنف هو التلويح إلى البيت المشهور:

لك الحمد. أما ما نحب فلا نرى ونبصر مالا نشتهي. فلك الحمد

لوى الشيخ عنقه ووجم مفكرا ثم أجاب: هذا الاحتمال غير وجيه لأن الحمد في الجملة مطلق. وهو في الشعر مقيد. ثم رجع فيما كان فيه).

هكذا صور مصطفى عبد الرازق تخلف ذهن المدرس عن إدراك ما يرمي إليه الطالب وإصراره على تكريه درسه إلى سامعيه.

ولما مات الإمام طلب تلاميذه إلى الشيخ أبي خطوة أن يجعل درسه الذي يلقيه بداره على خاصته درسا ليلا عاما. وازدحمت باحة الدار. لكنه انقطع فجأة. فألح عليه السائلون فقال: "إن التفاف طلاب الشيخ محمد عبده حولي واجتماعهم في داري واشتغالنا بقراءة كتب عزيزة بين الأزهريين أخذ يقلق بال أهل الحول والطول".

***

مات الإمام وكان لي كنفا وقضيت أنت وكنت لي درعا

(١٠٧) كانت لسان حزب الأمة رئيس تحريرها لطفي السيد ومن كتابها الباشوات مصطفى عبد الرازق وعلي عبد الرازق ومحمد حسين هيكل وطه حسين ومنصور فهمي والأستاذ محمود عزمي والعقاد والمازني وشكري والغاياتي.

كان ورثة الإمام جد عليمين بأنه لم يكن يستبقي لنفسه من مرتباته إلا النفقة، وأنه يفرق الباقي في مستحقين آخرين [١٠٨] فلم يبق لعياله إلا معاشهن. وكان أخوه حمودة قد صار محاميا وحمل رتبة (بك) فاشترى باسم أخيه بعض أرض فضاء في الصحراء وأفدنة من دائرة السنية ثمن الفدان من الأولى عشرة جنيهات بيعت فيما بعد كلها بنحو ألف وخمسمائة جنيه وبيعت الدار التي بناها لنفسه في صحراء عين شمس إلى وزارة الشئون الاجتماعية، وما تزال – مع تجديد الوزارة لها – أشبه بدار مستخدم صغير.. بل شيخ صوفي علمه الشيخ درويش أن يسير في ملكوت الله خطى كتبت عليه، دون أبهة أو مجيلة.

وعلى مقربة من هذا المسكن كان سعد باشا في بعض السنين يستأجر دارا أحدث بناء يقيم فيها شهورا بحثا عن الجفاف.

وفي ذلك العصر كان كثير من المستشارين، من غير أعضاء الجمعية الخيرية الإسلامية الذين ماتوا فقراء، يشترون الضياع من فضل مرتباتهم. أما المحامون فمنهم خليل

---

(١٠٨) أسلفنا أنه وكل وكيلا في قبض بعض مرتباته وصرفها للمستحقين المشار إليهم دون أن يعرف أحد أسماءهم. ولولا إفشاء الشاعر الكاظمي سر، لسليم سركيس والشيخ عبد القادر المغربي لطوى الخفاء خبر مرتبه. وقد حلت وزارة الأوقاف محل الإمام بعد موته في تقدير مرتب له بتوسط سعد زغلول حتى مات الكاظمي سنة ١٩٣٥. وفي إحدى قصائد الكاظمي في الإمام – بعد موته – يقول عن سعد إذ نفي إلى جزر سيشل:

هـذا ربيـك يـا محمـد حامـل مـا تحمـل
فلتحي مصر وأهل مصر ومـن جوتـه سيشـل

سأل الإمام قبيل سفر له يوما، رشيد رضا عن الكاظمي فأنبأه أنه مدين فقال إنه يأسف لأن أخاه تصرف في نفقة السفر. ولو علم قبل ذلك لسدد الدين لأن سداده أولى من السفر.

وفي سفرته إلى الإسكندرية عهد أهل الإمام إلى رشيد رضا أن يرتب أوراقه فوجد في محافظها صررا من نقود عليها أسماء أصحابها لترسل إليهم.

ويقول العقاد (عرفنا نحن إناسا نظروا إليه في جوف الليل يطرق عليهم الأبواب ويسلمهم ما قدر عليه من عاجل الصدقة. وهو يقول إنه أمانة من جهات البر يؤديها إليهم ولا يعرفهم بنفسه وكنا نسكن بخط المطرية التي كان فيها مسكنه فنسمع أخبار، مع أصحاب البيوت الكريمة التي فقدت عائليها فلم يعرفوا أنه هو ذلك الرسول الذي كان يطرق عليهم أبوابهم تحت جناح الظلام إلا بعد أن افتقدوه)

وللعقاد كتابان في رجال القرن الحالي عن محمد عبده وسعد زغلول.

إبراهيم يشتري أربعة آلاف فدان والهلباوي تسعة آلاف فدان [١٠٩] وعشرات آلاف الأمتار في "جاردن سيتي" ثمنها الآن مئات ملايين من الجنيهات.

تزوج البنات في حياة الإمام من إخوة ثلاثة هم محمد بك يوسف الذي سينتخبه المحامون نقيبا لهم وأخويه عثمان بك [١١٠] وسيصير مستشارا في الاستئناف وعبد اللطيف. وتزوجت رابعتهن بعد موته من تاجر مجوهرات صغير. ماتت الأولى في الربع الأول من القرن والثانية في منتصفه والأخيرة من بضعة عشر عاما.

وكان أهل هذا الدين الذي أراد إصلاحه هم الوارثون حقا، بما هيأ لهم في منجزاته من قدوة وفي مؤلفاته من قواعد التفكير الحر، الجامع بين العلم والدين والقوة والحضارة.

والمؤلفات [١١١] قليلة قلة سنوات تدريسه لكنها جليلة جلاله فحواها، خالدة خلود آثارها وهو فعال قوال، تشارك أعماله أقواله في تخليده:

---

(١٠٩) تسببت أقساط أراضي جاردن سيتي في نزع ملكية الهلباوي بك وتدخل الملك فؤاد في المزاد فرست عليه ملكية دار الهلباوي بجاردن سيتي ورسى مزاد ٦٢٣ فدانا على موكلته السيدة هدى شعراوي فوقفت الأرض على عائلته ومن بعدها الجمعية وآل نصف ذلك المقدار للجمعية. وخصومة الملك فؤاد للهلباوي مشهورة.

(١١٠) أنجب عثمان بك من بنت الإمام حفيدان يشار إلى كل منهما بالبنان في صناعتيهما أولهما زميلنا المرحوم إبراهيم عثمان يوسف مات نائبا لرئيس محكمة النقض بمصر وثانيهما الدكتور محمد عثمان يوسف الأستاذ السابق لطب العيون بالجامعة المصرية.

(١١١) منها:

١ – تفسير القرآن الكريم.

٢ – مجموعة فتاوى الشيخ محمد عبده (مجموعة بدار الإفتاء).

٣ – رسالة الواردات.

٤ – حاشية على الدواني.

٥ – ترجمة الرد على الدهريين لجمال الدين.

٦ – شرح مقامات بديع الزمان الهمذاني.

٧ – شرح نهج البلاغة.

٨ – شرح البصائر النصيرية (ابن رسلان).

٩ – رسالة التوحيد.

أعجلها في الأثر تكوين "الزعامات" التي ظفرت لمصر بالاستقلال والدستور، وأجلها إصلاح القضاء الشرعي، لكن أفعلها في عقول قومه هو العمل المنهجي بالحرية الفكرية والعقيدة الصحيحة. وإن تعجب فعجب أن تنقضي أعوام سبعون على قيام الجامعة التي شرع وصحبه في إنشائها قبيل موته وورثتها جامعة القاهرة، والجامعات التي تفرعت عليها في مصر والعالم العربي، وأن تسمى قاعة الأزهر الكبرى "قاعة محمد عبده"، ومع ذلك اقتصر الكتاب على إجماع حياته ولم تتطرق الدروس ولا الرسائل إلى الأبواب الواسعة من وجوه علمه. فهو "المجتهد" المطلق في الفقه و"المفسر" المعاصر للقرآن و"الشيخ المفتي" و"المصلح" الأعظم للقضاء الشرعي و"روح الإصلاح" الذي يسري في الأزهر و"المشرع" الأكبر في مجلس الشورى و"المجدد" الحفيظ على اللغة و"طليعة" الإصلاح القومي في الوقائع أو "رئيس التحرير" [١١٢].

وهو "الشيخ الرئيس" في الجمعية، وفي المحكمة، وهو "الصوفي" المجاهد في الله حق جهاده والسابح في بحار السياسة العالية سبح كبار الربانية.

***

وهو الإمام الذي لم تطفئ جذوته برودة القمم العالية التي قضى فيها عمره. أو يستبد بقلبه كبر أو نشوة نصر. علمته فتوة المتصوفة أن ينسى نفسه ويذكر الناس. فكان في كل مواقعه يكسب سبباً أو علماً أو فقهاً لخدمتهم. ولا فقه إلا أن يعايش الحياة الواقعة.

ومن ثمة كان فقهه تطبيقيا يتعاظم تعاظم وفائه بحاجات عصره وإثباته للناس أن العقيدة الإسلامية "نظرية وتطبيقاتها" لا مجرد مبادئ يترنم بها الحفظة المتجمد أو الجاهل البليد. وعلى هذا تكافأت مواقفه وتعاليمه وسيرته ودروسه. وطالما اجتمعت في موقفه الواحد معان لا تجتمع

---

١٠ – الرد على هانوتو.

١١ – الرد على فرح أنطون (الإسلام والنصرانية).

١٢ – رسائل وكتابات مختلفة.

١٣ – رحلة صقلية.

١٤ – نظام التربية والتعليم في مصر.

(١١٢) اطلعنا في كلية اللغة العربية على رسالة دكتوراه للدكتور أحمد عبد الرحمن عيسى (الفن الصحفي عند محمد عبده) ورسالة ماجستير (محمد عبده أديبا وناقدا) للسيد تقي الدين السيد.

إلا في الكتاب الكامل. وتكاملت الشجاعة والحكمة والموعظة الحسنة مع العلم في إحداث الأثر. فانمازت حياته من حياة غيره من الأئمة بكثرة ما خاض من ميادين جهاد علمي واجتماعي وسياسي وما قدم فيها من دروس تطبيقية. فهو في كل صفة أو وظيفة "صاحب موقف" لا مجرد رأي أو تمسك بنظرية.

والناس أسمع وأبصر بالموقف لأنه "عمل".

كانت حياته أسلوبا تطبيقيا من أساليب الإسلام لإصلاح عصره "بطريقة حياته" وتداول آرائه واقتفاء آثاره.

وهو دائم الصعود. لا يتوقف ولا يتخلف من عهد الطلب إلى عهد التدريس. ومن تعليم الشباب إلى تعليم الأمة ثم الجهاد في الثورة ثم في الخارج ثم في منصة القضاء العالي ودار الإفتاء فمنبر التفسير في الأزهر حتى صار إلى الرفيق الأعلى.

وهو الكوكب الدري في ارتفاعه ودورانه حول نفسه ليطورها ويطور الناس معها.

إليك مثلين أولهما في العمل: حيث له في مراحل الحياة النيابية أطوار ثلاثة تسعفه فيها أصول الفقه الثلاثة (سد الذرائع والعمل بالمصلحة والقياس الصحيح) يوم عارض الثوار مخافة ألا يصلح الحكم النيابي للأمة ويوم أصبح مدافعا عنه بعد إذ رآها تهيأت له ويوم صار زعيم ممثلي الشعب في مجلس الشورى.

وثانيهما في العلم: حيث يقول في شرحه لنهج البلاغة قبل ١٨٨٨م (إن الرسم على الورق والأثواب ونحوها لا يمنع استعماله وإنما يتجافى عنه بالنظر تزهدا وترفعا) ثم حبه له وقوله في رحلة صقلية سنة ١٩٠٣ إنه (يغلب على ظني أن الشريعة الإسلامية أبعد من أن تحرم وسيلة من أفضل وسائل العلم بعد تحقيق أنه لا خطر منها على الدين).

فلا تتساءل لماذا كان فقهه أو فهمه يجد طريقه إلى الأفئدة، أو لماذا أجمعت عليه الأمة وتحت حقد الحاقدين والجامدين. فالمسلمون يفتحون قلوبهم للمجتهد، إذ يلمسون من "طريقة حياته" صدور رأيه عن أصول الإسلام. وهو دين الفطرة، تهتدي إليه النفوس وتهدي بالإخلاص والوضوح.

وفي المثلين اللذين سقناهما لتطوره وتطوير الأفكار معه مصداق ذلك ودلالتان على أن الحكمة والموعظة الحسنة هما الأسلوب الأمثل لكل دعوة.

وإذا جاز تقدير امرئ بما يفكر فيه طول يومه، فالرجل العظيم يقدر بما يفكر فيه ويصنعه طول حياته.

فما أعظم مقدار هذا الإمام الذي حرك "آلة" الاجتهاد كما يسميها الشافعي وأبو حنيفة، وأثبت قدرتها الديناميكية على إحداث الإصلاح، حتى فيما يخاله الناس أسوأ الظروف أو آخر الزمان، والذي جلى لأمته قواعد استقلال الإرادة وحرية الاجتهاد والاختلاف والمحاولة والخطأ. ليخلفها عالية الراس مفتوحة العين قادرة على الفهم والحركة، في عالم سيرى الناس فيه بأعينهم أقدام رجال منهم على سطح القمر

وهو الغائب إذ تبادرت الخطى إلى حظوظ الدين، الحاضر إذا دعا الداعي، كرجع الصدى، لصوت بلاده، وكالقائد الذي يظهر حيث ينتظر أن يظهر، لدفع أذاه أو تقديم عون أو تكوين رأي عام.

وهو دائما أقرب المحاربين للعدو، والأشد أيدا، والأسخى يدا في مجالس إداراته، أو فتياه أو شوراه وفي كل مقام. يتكافأ احتفاله بالمعرفة، مع إقباله على الخدمة العامة. وشدته وحدته في مقاومة الظلمة مع فيوض الرحمة بالضعفاء والاهتمام بالجانب الإنساني الذي يهب الحياة قيمة والأشياء معنى والأشخاص إحساسا بالذات.

وهو في كل حالاته داع إلى الله بالحكمة، ظاهر السمات واضح القسمات، سوى الخلق والخلق، تحكم ذاته وحدة الغريزة والعقيدة، وطريقة الحياة، حتى ليدرك المرء صنيعه قبل أن يصنعه في مواقفه المتوافقة أو المتخالفة، لأنها محكومة بمنطق الرحمة الذي بني عليه الإسلام وجبل عليه الإمام.

فليس مصادفة أن يكون الساسة العظماء والعلماء والكبراء والفقهاء والأدباء الذين تقدمت بهم الدنيا تلاميذه وأن يكون رائد "العمل الجماعي" الذي أحيا الشعور العام في الأمة، أجاءته السماء على فترة من الأئمة ليصير خصائصهم قوى متضافرة في توليد تيارات من السلوك السليم والإدراك الصحيح، في عصر عاصف مستوفز، ووطن تلتقي فيه وتفترق طرق العالم وحقب التاريخ، يتكالب المستعمرون الأوربيون، والأعداء المحتلون، والحكام الانتهازيون، على استصفاء خيراته لأنفسهم، وعلى تجهيل أهله وتضليل علمائه وإخماد جذوته. فكان لزاما أن يعمل الإمام في آفاق لا ترتفع إليها مطامع الإنجليز ومفاسد الخديوين.

وما هي إلا "الدين واللغة والشريعة" حيث النفوس الجيدة تطرد النفوس الرديئة إلى أسواق السلاطين، وفيها المراصد لمهاب الريح ومصادر الضغط من أوربا أو القاهرة. وكانت آية النجاح في سياساته أن يصنع كل ما صنعه دون أن يقال عنه إنه يعمل "بالسياسة" وأن يفهم بعض تعوذه بالله منها على إطلاقه أو ظاهر عباراته التي سنقرؤها فيما بعد.

قال بعضهم إنه تعامل مع الإنجليز مؤثرين التزام جانب الخديو ومتمسكين بالسيادة التركية على مصر. وفاتهم.

١- أن كل هؤلاء عدو تجمعه مصالحه مع الإنجليز. وتركيا هي (الرجل المريض) لا يقويه في مصر إمام مصر.

٢- أن الإمام بقية الناس من أبطال الثورة على الأسرة المالكة وأذنابها وممثل "جماعة المسلمين" في عصره، عليه أن يكف الأذى الحال بوطنه والتصدي لمصدره ومناقشته.

٣- أنه لابد للمناقشة من طرفين. وإلا غابت مصر حيث يجب أن تكون حاضرة. فكذلك صنع ابن تيمية وابن خلدون.

٤- وأن الاكتفاء بالصياح في وجه العدو – حيث يمكن العمل للأمة – تعطيل للقوى الذاتية فيها وإمكان للعدو منها.

٥- وأن التاريخ قد أقر صنيعه فلم تنل مصر من الإنجليز نيلا إلا بالمرواضة أو المفاوضة.

***

وأي هذا كان فكبرى سياسات إمام المسلمين في عصره أنه فرض على نفسه – فرض عين – تنفيذ واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بيده ولسانه وقلبه، وأنه قدر على ذلك وإن خذله بعض أو خيب ظنه بعض. وأنه نشط عناصر الصحة في الأمة لتعالج بها متاعبها. وأن مدرسته استمرت على طريقته فأبلغت الأمة مبالغها لتسبق غيرها من دول آسيا وأفريقيا بنحو قرن.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر "وعاء الجهاد" الخارجي والداخلي في سبيل الله والجماعة. والجهاد عنفوان السياسة والإسلام دين ودولة.

والذي ينشط عناصر الصحة الذاتية في أمة مسلمة لا يستعمل الإدهان أو الانتهاز أو المباغتة وإنما يستعمل (القيم الإسلامية) أي "القيم الذاتية" لتبقى وتقوى وتقدر على المقاومة.

لقد استأنف محمد علي وبنوه صفحة في تاريخ مصر، شوهتها البلاهة باستعمال الأجانب والتمكين لامتيازاتهم، وإسراف بنيه على أنفسهم باستيراد مظاهر الحضارة الغربية لا حقائقها، وإحلالهم القانون الفرنسي محل الشريعة الإسلامية وعجز القانون المستورد عن أن يجعل المصريين أوروبيين وإقبال أساطيل أوربا لتغمد سيوفها في قلوب أمة مفتوحة لها.

وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينا غصبا. وتقاذف الطرفان الصولجان.

وكان من فضل الله على مصر أن يستغل الإمام التوازن الشكلي الهشيش بين الطرفين، ليعمل لأمته بالمبادئ الإسلامية والسواعد الوطنية لا (بالقيم الأجنبية).

ولقد نهضت اليابان نهضتها في أوائل القرن التاسع عشر مع نهضة محمد علي، وارتفع صوت اليابان وخفت صوت مصر لمناصبة أوربا العداء لها وتهافت المصريين على "قيمها" دون "قيمهم".

ونهضت الصين نهضتها في منتصف القرن العشرين، مع نهضة مصر، وبلغت الصين شأوها ولم تبلغ مصر لأنها استخدمت "قيما مستوردة". ولم تلجأ إلى القيم "الإسلامية" التي حييت حتى اليوم ببقاياها.

أجل – علم محمد عبده تلاميذه: سعد ومحمد فريد ورشدي وعدلي وثروت ومحمد محمود من الساعة العالميين وقاسم وحسن عاصم وعلي فخري والهلباوي ولطفي السيد وحافظ إبراهيم وعلي إبراهيم وطلعت حرب والمراغي ومصطفى عبد الرازق وتلاميذهم من الزعماء والمصلحين في شتى الميادين، متعاقبين أو مجتمعين، أن استعمال "القيم الذاتية" هو الترياق المجرب.

ومن طريقته تفرعت مناهجهم وتعاظمت هممهم فشادوا من سيرة إمامهم وسيرهم هرم مصر الرابع.

والخلد نتاج همم كبار ترفعها قيم كبرى إلى قمم عليا، ليسير الناس في هداها. والله متم نوره.

obeikandl.com

وصية ومبادئ

حفلت حياة الإمام بأعمال تفوق الأقوال. ومن ذلك كان الاعتبار بأعماله فاتحة وصاياه. ولا حدود لما يستنبطه امرؤ من حياة إمام، وإن جاز لنا أن ننبه الآن على بعض أمور تتعلق "بالطريقة" قد يقتضيها المقام.

أولها: أن الانتساب إلى العلوم الشرعية شرف وعلى كل شرف تكاليف، أهمها العمل به. والعلماء و"أولو الأمر" قرناء إذ يتصدون للعمل في سبيل الجماعة. أما التسلب من الواجب أو مساهلة الفساد فينزع من العالم وجه امتيازه ويجعله شريكا أخرس للآخرين.

ثانيها: أن الحياة تكبر بالترك وترقى، قدر ما يرفض صاحبها أن يتدلى. ولكل عالم المكان الذي يضع فيه نفسه، بصنيع يرفعه أو يضعه. وعلى هذا صاحب محمد عبده في شبابه رياض باشا والبارودي وزعماء الثورة وجمال الدين، وتقدم العلماء كافة في شيخوخته، وقال عنه الخديو من خشيته "يدخل علي وكأنه فرعون"!

ثالثها: أن يد الله مع الجماعة. وعلى الفرد أن يعمل مع "الجماعة" ليعلي قدره وأقدارها وأثره وآثارها، كالواحد إذا اجتمعت في جواره تجعله آلافا أو ملايين. ومن ذلك كان نجاح الجمعية الخيرية الإسلامية وما حذا حذوها من جمعيات وأحزاب ومجالس إدارات.

رابعها: أن الحفاظ على الوحدة الوطنية تكليف تأمر به الشريعة. لذلك كان آدى التلاميذ لهذه الأمانة أدناهم من الإمام. فالتاريخ يسمى سعد زغلول "زعيم الوحدة الوطنية" ومصطفى عبد الرازق ومحمد مصطفى المراغي إمامان في التسامح الديني والفكري والتعامل مع الأجانب من أهل أوربا. والزنكلوني كان يعانق القمص سرجيوس على منبر الأزهر [١١٣].

---

(١١٣) وفيهما تغني ثوار سنة ١٩١٩ يقول الشاعر

الشـــيخ والقســـيس قسيســـان وإن تشـــأ فقـــل همـــا شـــيخان

وباسم الشيخ الزكلوني مسجد بشارع سوق السمك القديم في حي الأزهر وباسم القمص سرجيوس شارع في مصر الجديدة من ضواحي القاهرة.

خامسها: أن الإمامة طريقة فكرية يسير فيها الأتباع والأشياع. تتجلى في "كليات" أو "أساسيات". وكان جل جهاد محمد عبده في مجال الدين واللغة العربية والشريعة. ومن التوحيد الذي هو أساس الدين تنبع الحرية الشخصية واستقلال الإرادة والخضوع لله دون غيره، وباللغة والشريعة قوام الأمة السياسي، ووحدة الجماعة، وسلامة المعاملات، وتماسك الأسرة، وازدهار قيم الذاتية للمجتمع.

ومن أصالة هذه الكليات تتابعت دساتير القرن الحالي في مصر والأمة العربية على النص عليها واتخاذها أسبابا للوحدة العربية والقومية العربية.

سادسها: أن من حق الجيل الحالي بمصر أن يفاخر بالنص في دستور ثورة التصحيح في سنة ١٩٧١ على أن (سيادة القانون أساس الحكم في الدولة).

فالحرية الشخصية والفكرية وحماية القانون لها هي التي أطلقت "ذات مصر" وملكات بينها وابتكاراتهم على أيدي الطلائع الخالدين من تلاميذ محمد عبده وتلاميذهم من العلماء القانونيين والشرعيين والطبيعيين والقضاة والمحامين والأطباء والمهندسين، والفنانين والكتاب والشعراء والمعلمين والساسة العالميين والمصرفيين والاقتصاديين الصناعيين والزراعيين، وغيرهم ممن تصدرت بهم مصر العالم الإسلامي والعالم النامي على مدار قرن كامل.

وعندما يتخلف القانون أو تجف أوراق الحرية يتوقف التقدم، ويصاب الفكر بالعقم، ويقضي الناس أعمارهم في الأنين.

سابعها: أن النهضة العلمية التي بدأها رفاعة رافع، والنهضة الفكرية التي بعثها محمد عبده، والثورة السياسية التي أشعلها سعد زغلول، أدلة ثلاثة على مقدار ما تستجيب طبيعة الأمة إلى الدعوة المنبثقة من "قيمتها الذاتية"، وأن هؤلاء الزعماء الثلاثة العظماء بكل المقاييس العالمية، والذين لمسوا العصب الحساس في الأمة بكفاءة وقوة، قد نتجوا جميعا في صحن الأزهر وحيوا – حياتهم كلها – متمسكين بالقيم التي غرستها فيهم أيامهم الأولى فيه. وما هي إلا "القيم الإسلامية" التي تهب القوة والثقة وتجعل العمل لمصلحة الجماعة هو التطبيق الأمثل لفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ثامنها: أن هذه النهضات ورجالاتها الحافظين للتراث الإسلامي والآخذين من العلم الأوربي أحسنه أدلة عملية على أن "هذا الأمر لا يصلح آخره إلا بما صلح به أوله" وهو التطبيق

الصحيح للشريعة وأن التفكير الإسلامي تفكير عالمي يتخطى به المصلح حدود أقاليمه وأن التربية الإسلامية تجعل المسلم القدوة ثروة للإنسانية قاطبة.

تاسعها: أن دفاع الأسرة المالكة عن وجودها أو الإنجليز عن احتلالهم كان سببا في نفي رفاعة بك إلى مدرسة ابتدائية في الخرطوم! ونفي كل من محمد عبده وسعد زغلول مرتين.. أما اليوم فمصر لنا وحكامها من أنفسنا. وما أقدرنا على أن نبني بسواعدنا وقيمنا الذاتية أهراما حديثة من المنجزات العظيمة.

***

أما الوصايا المكتوبة، فواضحة العبارات في كتابات شتى ومجتمعة. قد يمكن إجمالها في مقولة الإمام الذائعة بشعار دعوته.

(إذا كان الدين كافلا بتهذيب الأخلاق وصلاح الأعمال وحمل النفوس على السعادة من أبوابها، ولأهله من الثقة فيه ما بيناه. وهو حاضر لديهم، والعناء في إرجاعهم إليهم أخف من إحداث ما لا إلمام به، فلم العدول عنه إلى غيره؟).

***

وهذه المقولة تنتجها مبادئ أهمها:

١- أن الدين هو العمل به لا مجرد الانتساب إليه.

٢- أن الدين والعلم صنوان في الإسلام.

٣- أن الإسلام دين الحرية الفكرية وتحكيم العقل، ومن ذلك يوجب الاجتهاد ويأذن بالتطور.

وقد يكون أقرب الموارد لاستخراج هذه المبادئ وأدلها على ارتباط ذاته ونظرياته محاضرته المرتجلة في تونس سنة ١٩٠٣ وفيها أعلن حاجة المسلمين إلى أمور ثلاثة:

١- العمل الجاد دون تواكل.

٢- استعمال العقل.

٣- سلامة العقيدة.

قال بين ما قال:

– (إن الواحد منا إذا لاح في ذهنه نور إلهي يرشده إلى طريق العلم يأتيه معارض يقول له: إن الحالة الحاضرة هي قدر الله لا حيلة لنا فيها. وما لله من عدو أضر من هذه الاعتقادات، وكفانا قدوة خير أسوة سيد المتوكلين ﷺ فإنه كان على شدة توكله واعتصامه بالاستعانة بالله، جل شأنه، لا يفتر عن العمل في الدعوة إلى الحق وحمل الناس عليه.

جاء في الأحاديث والأدعية المأثورة قوله ﷺ "اللهم انفعني بما علمتني وعلمني ما ينفعني وزدني علما").

(... إن اليقين لا يحصل بقراءة الأدلة وخزنها في الأذهان وإنما يحصل بالاستدلال الصحيح وإدراك العقل وجه الدلالة من نفسه دون تقليد).

(.. إنما يكون اليقين بإطلاق النظر في الأكوان طولها وعرضها حتى يصل إلى الغاية التي يطلبها دون تقييد، كما هدانا الله إلى ذلك في كتابه، فإنه يخاطب الفكر والعقل والعلم به بدون قيد ولا حد).

ويضرب نفسه مثلا لما يدعو إليه فيقول:

(أقول قولي هذا ولا أريد إلزام أحد بقبوله وإلا خالفت ما أدعو إليه من استقلال الفكر وحرية الرأي).

ويستطرد للتحديد وتخليص الاعتقاد في رسالة التوحيد فيقول:

(يجب أن يقتصر الاعتقاد على ما هو صريح في الخبر ولا يجوز الزيادة على ما هو قطعي بظني – وشرط الاعتقاد ألا يكون فيه شيء يمس التنزيه وعلو المقام الإلهي عن مشابهة المخلوقين.

وإنما الذي يجب الالتفات إليه هو أن أهل السنة وغيرهم في اتفاق على أنه لا يجب الاعتقاد بوقوع كرامة معينة على يد ولي لله معين بعد ظهور الإسلام فيجوز لكل مسلم بإجماع الأمة أن ينكر صدور كرامة، كانت من أي ولي كان، ولا يكون بإنكاره هذا مخالفا لشيء من أصول الدين ولا مائلا عن سنة صحيحة ولا منحرفا عن الصراط المستقيم، اللهم إلا أن يكون مما صح في السنة عن الصحابة.. أين هذا الأصل المجمع عليه مما يهذي به جمهور المسلمين في هذه الأيام حيث يظنون أن الكرامات وخوارق العادات أصبحت من ضروب الصناعات يتنافس

فيها الأولياء وتتفاخر فيها همم الأصفياء وهو مما يتبرأ منه الله ودينه وأولياؤه وأهل العلم أجمعون).

***

وأصل ذلك وفصله في الرد على دعوى فرح أنطون: (إن المسيحية أكثر تسامحا مع العلم من الإسلام) فبدأ الرد بالطرف الأول من المفاضلة فذكر مسلمات المسيحية واستطرد إلى الأصول الإسلامية الثمانية التالية:

١- أن الإسلام (قد قاضاك إلى العقل ومن قاضاك إلى حاكم فقد أذعن لسلطته. بلغ هذا الأصل بالمسلمين أن قال قائلون من أهل السنة: إن الذي يستقصي جهده في الوصول إلى لاحق ثم لم يصل إليه ومات طالبا غير واقف عند الظن فهو ناج. فأي سعة..!)

٢- اتفاق أهل الملة (إلا قليلا ممن لا ينظر إليه، على أنه إذا تعارض العقل والنقل أخذ بما دل عليه العقل. وبقي في النقل طريقان: طريق التسليم بصحة المنقول مع الاعتراف بالعجز عن فهمه وتفويض الأمر إلى الله في علمه، والطريق الثانية تأويل النقل مع المحافظة على قوانين اللغة حتى يتفق معناه من ما أثبته العقل).

ونحن نستصحب دائما قول ابن تيمية [وقد تدبرت ما أمكنني من أدلة الشرع فما رايت حديثا صحيحا يخالف حديثا صحيحا، كما أن المعقول الصريح لا يخاف المنقول الصحيح..].

٣- البعد عن التكفير (فإذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مائة وجه ويحتمل الإيمان من وجه واحد حمل على الإيمان).

٤- الاعتبار بسنن الله في الخلق، فالقرآن يصرح بأن لله في الأمم والأكوان سننا لا تتبدل، والسنن هي الطرائق الثابتة التي تجري عليها الشئون وعلى حسبها تكون الآثار التي تسمى شرائع أو نواميس ويعبر عنها قوم (بالقوانين) ومعنى ذلك أن الدين منطقي ولد في العلم فلا يمكن أن يحتقره.

٥- قلب السلطة الدينية. فلا سلطة دينية إلا للموعظة الحسنة. ولكل مسلم أن يفهم عن الله من كتابه وسنة رسوله دون وسيط سواء في الاعتقاد أو في الفقه العملي.

٦- حماية الدعوة لمنع الفتنة.

٧- حماية الآخرين من الفتنة (لهم ما لنا وعليهم ما علينا) (من آذى ذميا فليس منا) وفي الأسرة المسلمة زوجات غير مسلمات مسيحيات ويهوديات.

٨- الجمع بين مصالح الدنيا والآخرة فصاحب هذا الدين لم يقل: (بع ما تملك واتبعني) ولكنه قال لمن استشاره في الصدقة (الثلث والثلث كثير. إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس).

والرخص كثيرة عند المشقة والزينة والطيبات مباحة مع الاعتدال.

(والمسلمون محفوزون حفزا لطلب العلم فإذا لاقاهم العالم شدوا به أواصرهم ولا يبالون ما تكون عقيدته.. لا شيء ينقلب عند النفس الإنسانية لذة بنفسه – وإن كان في أول الأمر مطلوبا لغيره – مثل العلم).

***

وحصل النتائج فيما يمكن إجماله في:

١- اشتغال المسلمين بالعلوم الأدبية والعقلية في القرن الأول وبالكونية في القرن الثاني، حتى صار في إسبانيا – الأندلس – وحدها سبعون مكتبة عمومية. وفي بغداد كان حنين بن إسحق النسطوري يجعل داره مكتبة عامة يتعلم فيها المسلمون وغيرهم.

٢- (قالوا إن "بيكون" هو أول من جعل التجربة والمشاهدة قاعدة العلوم العصرية ذلك حق في أوربا. وأما عند العرب فقد وضعت هذه القاعدة عندهم لبناء العلم عليها في أواخر القرن الثاني من الهجرة [١١٤].. حتى لقد نقل جوستاف لوبون عن أحد الفلاسفة الأوروبيين أن القاعدة عند العرب (جرب وشاهد ولاحظ تكن عارفا) وعند الأوربي إلى ما بعد القرن العاشر من التاريخ المسيحي (اقرأ في الكتب وكر ما يقوله الأساتذة تكن عالما) [١١٥].

---

(١١٤) هذه الفقرة تسجل سبقا للإمام يتابعه فيها الكتاب المعاصرون.

(١١٥) يقوم المنهج العلمي العالمي في العصور الحديثة على التجربة والاستخلاص وينسبه الأوربيون إلى فرانسيس بيكون (١٦٢٦) إذا صدر كتابه Novum Organum (النظام الجديد) متضمنا للمنهج وتفاصيل هذا المنهج هي تفاصيل المنهج العربي في الاجتهاد (الأصل الرابع من أصول الفقه الإسلامي) نقله الأوربيون بعد ترجمة العلوم من العربية إلى اللاتينية ثم إلى اللغات الأوربية الحالية في الطب والطبيعة والكيمياء والتاريخ والجغرافيا وهو أصل قرآني صريح واعترافات الأوربيين المعاصرين تثري على ذلك – راجع كتابنا (القرآن والمنهج العلمي المعاصر) طبعة دار المعارف.

٣- احترام العلماء من أي نحلة (كان عمرو بن عبيد رئيس المعتزلة.. ومع ذلك فهو من مشايخ البخاري صاحب الصحيح..).

٤- ولا يحتج على الإسلام بمسلك المسلمين في عصور تخلفهم أو برجال متخلفين. فجمود المسلمين يعيبهم ولا يعيب دينهم. وهو علة عرضت لهم من تخلفهم السياسي، (فإن شئت أن تقول إن السياسة تضطهد الفكر أو الدين أو العلم فأنا معك من الشاهدين أعوذ بالله من السياسة ومن لفظ السياسة ومن كل أرض تذكر فيها السياسة. ومن كل شخص يتكلم أو يتعلم أو يجن أو يعقل في السياسة، ومن ساس ويسوس ومسوس).

٥- (جل ما تراه الآن مما يسميه العالم إسلاما فهو ليس بإسلام وإنما حفظ من أعمال الإسلام "صورة" الصلاة والج ومن الأقوال قليلا صرفت عن معانيها. ووصل الناس فيما عرض لدينهم من البدع والخرافات إلى الجمود).

٦- جنى الجمود على اللغة وأضاع آثار المتقدمين..

(قال قائل [١١٦] من عدة سنين: إنه ينبغي أن يعين القضاة من أهل المذاهب الأربعة لأن أصول المذاهب متقاربة وعبارات كتبها مما يسهل على الناظر فيها أن يفهمها.

وقال إن الضرورة قاضية بأن يؤخذ ببعض الأقوال من مذهب مالك أو الشافعي تيسر على الناس دفعا للفساد فقام كثير من المتورعين يحوقلون ويندبون حظ الدين).

٧- ويقول في العقل والوجدان (لا تزال الشدائد تنزل بهؤلاء المنتسبين إلى الإسلام ولا تزال القوارع تحل بديارهم حتى يفيقوا.. وعند ذلك يجدون هذا "الكتاب الكريم" في انتظارهم.. وقد وعد الله بأن يتم نوره..)

(هنالك يلتقي "العقل" مع الوجدان الصادق "القلب".. إياك أن تعتقد ما يعتقده بعض السذج من أن هناك فرقا بين العقل والوجدان في الوجهة بمقتضى الفطرة والغريزة. فإنما يقع التخالف بينهما عرضا عند عروض العلل والأمراض الروحية على النفوس).

(العلم الصحيح مقوم الوجدان والوجدان السليم من أشد أعوان العلم. والدين الكامل علم وذوق وقلب. برهان وإذعان. فكر ووجدان. فإذا اقتصر دين على واحد من الأمرين فقد سقطت

---

(١١٦) يقصد الإمام ما جاء في تقرير عن إصلاح القضاء الشرعي. فهو يذكر قوله ولا يذكر نفسه.

إحدى قائمتيه. وهيهات أن يقوم على الأخرى. ولن يتخالف العقل والوجدان حتى يكون الإنسان إنسانين والوجود الفرد وجودين).

(لابد أن ينتهي أمر العالم إلى تآخي العلم والدين على سنة القرآن والذكر الحكيم).

الصورة الجميلة:

ويرسم الإمام صورة للوجه الجميل للإسلام في إبداع فقيه عالم بالتاريخ فيقول: (آخذ بيد القارئ الآن.. أدخل به بيتا من بيوت العلم فأجد جميع هؤلاء سواء في ذلك البيت يتحادثون ويتباحثون.. فالإمام البخاري [١١٧] حافظ السنة بين يدي عمران بن حطان [١١٨] يأخذ عنه الحديث وعمرو بن عبيد [١١٩] رئيس المعتزلة بين يدي الحسن البصري [١٢٠] شيخ السنة من التابعين يلتقى عنه. وقد سئل الناس عنه فقال: (لقد سألت عن رجل كأن الملائكة أدبته) بل أرفع بصري فأجد الإمام أبا حنيفة [١٢١] أمام الإمام زيد بن علي [١٢٢] يتعلم منه أصول العقائد والفقه ولا يجد أحدهم من الآخر إلا ما يجد صاحب الرأي في حادثة، ممن ينازعه فيه، اجتهادا في بيان المصلحة، وهما من أهل بيت واحد).

---

(١١٧) البخاري (٢٥٦) تلميذ الإمام أحمد (وصاحب الجامع الصحيح للأحاديث) أشهر كتاب عند المسلمين بعد القرآن.

(١١٨) إمام الخوارج الصفرية – وهو يروي أحاديث لأم المؤمنين عائشة.

(١١٩) زعيم المعتزلة (١٤٤) وقد سموا كذلك إما لاعتزال زعيمهم واصل بن عطاء مجلس الحسن البصري، وإما الاعتزال قول الأئمة، وإما لاعتزال مرتكب الكبيرة عن المؤمنين – وهم يقولون إن الإنسان مختار لأفعاله.

وعمرو زوج أخت واصل بن عطاء وفيه قول أبي جعفر المنصور:

(كلكم طالب صيد غير عمرو بن عبيد)

(١٢٠) الحسن البصري (١١٠) تلميذ سعيد بن المسيب إمام التابعين. وهذا زوج بنت أبي هريرة وكان الحسن إماما في الزهد والورع وهو شيخ عمر بن عبد العزيز وقاضيه.

(١٢١) أبو حنيفة (١٥٠) الإمام الأعظم لأهل السنة.

(١٢٢) زيد بن علي استشهد سنة ١٢١ إذ خرج على هشام بن عبد الملك.

وهو إمام الشيعة الزيدية. تغلم عليه أبو حنيفة ومن الفقهاء من يقولون إن المذهب الحنفي أقرب إلى المذهب الزيدي من مذاهب أهل السنة الأخرى.

ويقول: (والخلفاء أئمة في الدين مجتهدون وبأيديهم القوة وتحت أمرهم الجيش. والأئمة المجتهدون الآخرون هم قادة أهل الدين ومن جنود الخلفاء. والدين في قوته والعقيدة في أوج سلطانها. وسائر العلماء.. لا فرق في ذلك بين من كان من دينهم ومن كان من دين آخر، فهنالك يشير القارئ المنصف ويقول: ها هنا نعرف كيف يتفق الدين مع المدنية. عن هؤلاء العلماء الحكماء تؤخذ فنون الحرية في النظر..).

(إن المسلمين لما كانوا علماء في دينهم كانوا علماء الكون وأئمة العالم. أصيبوا بمرض الجهل فانهزموا من الوجود وأصبحوا أكلة الآكل وطعمة الطاعم).

"علو في الحياة وفي الممات"

لخص الإمام في مذكراته أغراض حياته من مطلعها ليذكر المسلمين أن الجهاد مستمر إلى يوم القيامة. قال رضي الله عنه:

(ارتفع صوتي بالدعوة إلى أمرين عظيمين:

الأول:

تحرير الفكر من قيد التقليد، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف، والرجوع في كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى واعتباره من ضمن موازين العقل البشري التي وضعها الله لترد من شططه، وإنه على هذا الوجه يعد صديقا للعلم باعثا على البحث في أسرار الكون داعيا إلى احترام الحقائق الثابتة، مطالبا بالتعويل عليها في أدب النفس وإصلاح العمل. كل هذا أعده أمرا واحدا. وقد خالفت في الدعوة إليه رأى الفئتين العظيمتين اللتين يتركب منهما جسم الأمة: طلاب علوم الدين ومن على شاكلتهم وطلاب فنون هذا العصر ومن في ناحيتهم..

أما الأمر الثاني:

فهو إصلاح أساليب اللغة العربية في التحرير سواء كان في المخاطبات الرسمية بين دواوين الحكومة ومصالحها أو فيما تنشره الصحف أو في المراسلات بين الناس..

وهناك أمر آخر:

كنت من دعاته.. وذلك هو التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب وما للشعب من حق العدالة على الحكومة.. دعوناهم إلى الاعتقاد بأن الحاكم، وإن وجبت طاعته، هو من البشر الذين يخطئون..

ولا أبرح أدعو إلى عقيدتي في الدين.. وأطالب بإتمام الإصلاح في اللغة. وقد قارب.

أما أمر الحكومة والمحكوم فتركته للقدر يقدره، وليد الله بعد ذلك تدبره، لأنني قد عرفت أنه ثمرة تجنيها الأمم من غراس تغرسه وتقوم على تنميته السنين الطوال.

فهذا الغراس هو الذي ينبغي أن نعني به الآن).

***

أما تحرير الفكر وفهم الدين على طريقة السلف فقد أصبحا شعارين علميين للمسلمين في كل مكان. وعلا شأن المنهج السلفي، وغدا فقه زعيميه ابن تيمية وابن القيم أداة إصلاح للقوانين في الزواج والطلاق اللذين نادى محمد عبده بإصلاح قوانينهما فأصلحت كما طلب. وبلغت الشريعة من نفوس الأمة مبلغ النص عليها في أول أبواب الدستور سنة ١٩٧١.

وأما اللغة العربية فأمست لغة رسمية للأمم المتحدة تدور حول الأرض في المؤتمرات العالمية.

وبلغ الدين والشريعة واللغة مبالغها بالنص عليها في دساتير الأمة العربية كافة.

أما الغراس الذي ينبغي أن نعني به الآن وهو أمر الحكومة والمحكوم فقد عهد فيه هو، والقدر من بعده، إلى تلاميذه، فرادى ومجتمعين، مختلفين ومؤتلفين، فصنعوا لمصر وللعالم العربي صنيعهم الخالد وجعله (سعد زغلول) شعاره الرسمي ونفذه بعزم وتصميم (الحق فوق القوة والأمة فوق الحكومة).

وفرضت مدرسة الإمام وجودها على أجهزة الحكم. (سعد – فتحي – رشد – ثروت – عدلي – حشمت – محمد محمود) وعلى المجلسين التشريعيين (حسن عاصم حسن عبد الرازق ثم سعد وعدلي وعلي شعراوي) وعلى الصحافة (الجريدة ومديرها لطفي السيد وتلاميذه هيكل وطه حسين ومصطفى عبد الرازق ومنصور فهمي ومحمود عزمي) وفي الأدب (حافظ إبراهيم

ومصطفى المنفلوطي وعبد الرحمن البرقوقي والبشري ومصطفى صادق الرافعي) وفي الجامعة (لطفي السيد وعبد الوهاب النجار ومحمد الخضري) وفي الأحزاب (محمود سليمان رئيس حزب الأمة ثم محمد فريد رئيس الحزب الوطني ثم سعد زغلول ثم عدلي يكن ومحمد محمود) وفي الاقتصاد (طلعت حرب) وفي الإصلاح الاجتماعي (قاسم أمين ومدرسته) أما الأزهر ففيه محمد شاكر ومحمد مصطفى المراغي ومصطفى عبد الرازق.. وآخرون في شتى المجالات.

وأقامت المدرسة – بالحفاظ على الدين والوطنية – وحدة متينة العرى من خلال التعدد والتنوع كالصرح الذي تحمله أعمدة متعددة. وتتفتح نوافذه في كل وجه. فأحدثت ثورة سنة ١٩١٩. وظفرت لمصر بالاستقلال والدستور والنماء الاقتصادي الذي جعلها تداين إنجلترا في منتصف هذا القرن بنصف مليار جنيه استرليني.

obeikandi.com

التلاميذ

سعد زغلول:

بد الخالق ثروت – عدلي يكن – حسين رشدي – محمد محمود – محمد مصطفى المراغي – مصطفى عبد الرازق.

بلغت إنجلترا أوجها بانتصارها في الحرب العالمية الأولى. ونهضت مصر بدورها العالمي في الثورة على المنتصر، والسبق بالظفر باستقلالها سنة ١٩٢٢، على أيدي مدرسة مثل فيها الإمام طور جبل يستجم ليهجم. ومثل فيها سعد وصحبه جيل الانفجار السياسي عند إمكان حدوثه.

والشيخ هو القائل (إذا تم تكوين الجنين ظهر الرأس) وسعد هو القائل (لا يمكننا أن نصل إلى الكمال التام. ولكن يجب أن نصل إلى الكمال الممكن. فإذا لم نصل إليه لا نكون من المقصرين).

وكان طبيعيا – وقد نتج سعد في مدرسة الشريعة أن تكون العدالة مجاله الحيوي فيكون أعلى صوت في تاريخ بلاده طلب العدالة وقضى بها وكافح من جرائها، ليحقق ما للشعب من حق "العدالة على الحكومة" كما ورد في وصية الإمام التي نبه عليها في أقواله الأخيرة..

كان سعد كما قال عن نفسه أول إنسان في المحاماة انتخب قاضيا في الاستئناف سنة ١٨٩٢ ثم مستشارا سنة ١٨٩٣ ومعه قاسم ويحيى إبراهيم، فرأس في دائرته أكبر الفقهاء الأوربيين بمصر (دي هلس [١٢٣] وهالتون [١٢٤])، وذات يوم كان الأستاذ الإمام عضو اليسار في دائرته (١٩ أكتوبر سنة ١٨٩٧).

---

(١٢٣) صاحب كتابين مشهورين في القانون المدني والطعن الجنائي.

(١٢٤) أستاذ سابق بمدرسة الحقوق له مؤلف قيم في القانون المدني.

وفي ذلك العام ظفر بشهادة الحقوق من جامعة باريس بدرجة متفوقة!

وعمل في القضاء المدني والجنائي في عظمة وقدرة عقلية وعلمية ليس لهما نظير في كل أعصر القضاء.

هو أخطب الخطباء غير مدافع وهو رئيس محكمة النقض الجنائي التي خطت للقضاء الطريق. ورئيس دائرة الجنايات الكبرى الذي يعقد دائرته في (الإسكندرية) حيث وقعت الواقعة لتتم العبرة في محل الواقعة ولم تكن أنشئت دوائر الجنايات المنتقلة من القاهرة حتى ذلك الحين – وهو رئيس الجلسة الذي ينتب نفسه للتحقيق من القاهرة إلى الإسكندرية إلى رشيد لتقضي الدائرة ببطلان اعتراف المتهم بالقتل – مع إصراره على اعترافه – وهو صاحب الأقضية المدنية التي ما تزال تلمع في تاريخ القانون كالنجوم، ومنها (كفالة حق الدفاع – سقوط حصانة الإجراء الحكومي: إذا كان استبداديا [١٢٥] اختصاص المحاكم المختلطة مقيد والأصل اختصاص القضاء الوطني [١٢٦] – الشرط الجزائي – المسئولية المدنية – المسئولية الجنائية – استرداد الحصة المبيعة – الشفعة.. إلخ).

وكان في دوائر الاستئناف الأخرى الرجال الذين جعلوا القضاء الوطني عملاقا وهو وليد: قاسم أمين – حسن عاصم – علي فخري – أحمد عفيفي – محمد مجدي – حشمت – ثروت (النائب العمومي) – رشدي – يحيى إبراهيم – محمد سعيد – يوسف شوقي – ورئيس المحكمة فتحي زغلول [١٢٧].

---

(١٢٥) دفعت الحكومة الدعوى بالأمر العالي الذي يعفيها من المسئولية عن أي ضرر بسبب أعمال مصلحة الري. وقال سعد في الحكم.

(لا يمكن أن يكون المراد بهذه الأعمال الإجراءات الاستبدادية المخالفة للعدل والقانون والمضرة بحقوق الأفراد وليست فيها مصلحة عامة للناس لأن ذلك لا ينطبق بوجه من الوجوه على مبدأ الحكومات العادلة ولا يصح أن تتضمنه شرائعها).

(١٢٦) اجتمع في هذه القضية سعد رئيسا والهلباوي وعبد العزيز فهمي محاميان وأخذ سعد بدفاع الهلباوي وعبد العزيز فهمي ثاني النقباء وأول رئيس لمحكمة النقض المدنية وثالث الثلاثة في ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨.

(١٢٧) يقول رشيد رضا عن سعد وفتحي وصلتهما بالإمام (كانا يرجعان إليه في تنازعهما ويكونان معه كالولد أمام والده والتلميذ بين يدي أستاذه).

ويتجلى منطق التاريخ في إجلاله بين زملائه إذ ترفعه كفاياته إلى الزعامة، فيرأس الوزارة بين وزارتين رأس أولاهما زميله يحيى إبراهيم الذي اشتهر في التاريخ بأنه سقط في الانتخابات التي أجراها فلم ينتخب نائبا، في حين ظفر سعد بما يشبه الإجماع في دوائر مصر جميعا. كما رأس الثانية عضو اليسار في دائرته – أحمد زيور – الذي اشتهر في التاريخ بقبول الإنذار البريطاني والتخلي عن السودان إذ رفضهما سعد.

***

عين سعد في العام التالي لوفاة أستاذه [١٢٨] وزيرا للمعارف سنة ١٩٠٦ مقاربة من الإنجليز للرأي العام بعد مذبحة دنشواي ثم وزيرا للحقانية، فأنشأ نقابة المحامين وكان الهلباوي أول النقباء. واستقال سعد احتجاجا على التحقيق مع الزعيم محمد فريد سنة ١٩١٢.

وفي العام التالي سنة ١٩١٣ انتخبته الأمة نائبا عن دائرتين في الجمعية التشريعية وانتخبته الجمعية للوكالة لأن تعيين الرئيس كان حقا للحكومة، كما كان للحكومة حق تعيين وكيل ثان، فاختارت عدلي يكن (وكيل الجمعية الخيرية الذين سيصير رئيسا لها حتى وفاته).

ولما وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها قام أعضاء الجمعية الخيرية بأعظم الأدوار في ثورة سنة ١٩١٩ وفي حكم الأمة فيما بعدها.

ففي محاضرة للمستشار الإنجليزي برونيت أعلن سعد اعتراض الشعب على القوانين الإنجليزي المراد فرضها على القضاء – والحرب العالمية الأولى دائرة الرحى – ثم قدح شرارة الثورة ومعه علي شعراوي وعبد العزيز فهمي يوم ذهبوا في ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨ إلى القائد الإنجليزي المنتصر، يطلبون استقلال مصر وجلاء الجيش البريطاني وتألف منهم وصحبهم الوفد المصري للمطالبة بالاستقلال بزعامة سعد.

وفي الوقت ذاته طلب رشدي – وكان على رأس الحكومة – أن يسافر ومعه عدلي للمفاوضة على استقلال مصر في لندن، وأن يسافر الوفد برياسة سعد لعرض قضيتها على مؤتمر الصلح في فرساي بباريس. ورفض الإنجليز فاستقالت الوزارة في ١٦/ ٣/ ١٩١٩. فقبض

---

(١٢٨) وضع سعد تلاميذ الإمام تحت جناحه: محمد يوسف – وقد اختار، عضوا في الوفد المصري – وعثمان يوسف والمنفلوطي وحافظ والكاظمي ومصطفى صادق الرافعي وعبد الرحمن البرقوقي، وعين المنفلوطي بالجمعية التشريعية ومجلس النواب وكان حافظ يسمي نفسه شاعر، مثلما كان شاعر الإمام.

الإنجليز بعد أيام على سعد ومحمد محمود وحمد الباسل وإسماعيل صدقي ونفوهم إلى مالطة. فاندلع لهيب ثورة سنة ١٩١٩. فرجع الإنجليز يراوضون رشدي [١٢٩]، فألف الوزارة وفيها عدلي وثروت كما أذنوا لسعد بالسفر على فرنسا فسافر والوفد. وقدمت لجنة ملنر مشروعها ورفضه سعد، وعاد لتستقبله الأمة استقبال الفاتحين في إبريل سنة ١٩٢١، ثم ينفيه الإنجليز مرة ثانية إلى جزيرة سيشل فجبل طارق.

وفي منفاه رفض ولاية الملك حينما عرضه عليه دسيس من إنجلترا، وكان يتحدث في أحاديثه الخاصة عن إعلان الجمهورية.

وفي هذه الأثناء استقال رشدي وألف عدلي الوزارة ففاوض ومعه رشدي وقطع المفاوضات فطلب الإنجليز إلى ثروت تأليف الوزارة فاستغل ببراعة مقطوعة النظير نفي سعد واستقالة عدلي، وشرط لتأليف وزارة أن تعلن إنجلترا من جانبها استقلال مصر – مع تحفظات تجري عليها المفاوضات فصدر تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ بإعلان استقلال مصر.

وأعد ثروت الدستور لأول مرة في هذا القرن وتآمر الملك على حياته فاستقال.

***

أجريت الانتخابات بعد صدور الدستور فانتخب حزب سعد بما يشبه الإجماع فرأس الوزارة في ٢٨ يناير سنة ١٩٢٤، فسافر إلى لندن للمفاوضة وقطعها ورجع يلزم الملك احترام الدستور، والتزم قاعدة (الملك يسود ولا يحكم) وأن الحكومة تحت رقابة البرلمان هي التي تحكم البلاد، وتعين الموظفين والسفراء وأعضاء مجلس الشيوخ المعينين. وتحرج موقف الملك. فاحتكما إلى النائب العمومي للمحاكم المختلطة فان دان بوش وكان بلجيكيا ومن الدستور المصري ماله أصل بلجيكي.

ورما كان في فقرة مما جاء في كتابه: (عشرين عاما في مصر) مثال لجهاد الزعيم:

(كم أعجبت يومئذ (فبراير ١٩٢٤) بقوة الذاكرة ومتانة الحجة وبلاغة البيان التي يمتاز بها هذا الشيخ السبعيني العمر على الرغم من آلام المرض والنفي، بل كم دهشت لإرادته التي لا تقاوم.. كانت الجموع الحاشدة تهتف آنة بعد آخر وتطلب سعدا فخرج مرة بعد أخرى وشكر

---

(١٢٩) رأس الوزارة ٤ مرات ورأس لجنة الدستور. وكان وكيلها أحمد حشمت.

المتظاهرين وأخيرا.. ختم حديثه معي قائلا: إذن إلى الغد الساعة العاشرة في سراي عابدين. وعندما دخلت صباح اليوم التالي إلى مكتب الملك كان يداعب مسطرة صغيرة لقطع الورق. وكل حركاته تدل على التأثر. أما زغلول باشا فكان جالسا أمامه ممتلكا حواسه ويتحدث في هدوء وحمة.. فأدركت في الحال خطورة الأمر.. ولمحت من خال العبارات الرقيقة أن تنافرا يوشك أن ينقلب إلى كارثة إذا لم يعالج بدون إبطاء. وسمعت زغلول باشا في أثناء المناقشة التي كان يتزايد نشاطها يقول: (إذن أستشير الشعب) نظرت من الشباك الزجاجي العريض إلى الفضاء الواسع بميدان عابدين. (حيث الأمة محتشدة). ثم قلت في نفسي: كلمة واحدة من هذا الرجل السياسي الذي يملك اليوم مصر كلها روحا وجسدا – كلمة واحدة تكفي لتحويل تلك الحياة الهادئة إلى منظر رهيب من مناظر غضب الشعب.

وأبدى فان دن بوش رأيه مؤيدا سعد زغلول – وذكر أنهما إذ انصرفا معا من قصر عابدين قال له سعد: (لقد أنقذت مصر من أزمة شديدة وشديدة جدا) (١٣٠).

وكان القصر الملكي يدير المؤامرات (١٣١) للخلاص من سعد كما دبرها ضد ثروت في الأزهر.

***

وأخيرا حل عقدة الملك وسعد قتل سردار الجيش (الجنرال لي ستاك) في ١٩ نوفمبر سنة ١٩٢٤ بمؤامرة أخرى، وإنذار إنجلترا مصر باحتلال مرافقها وإعلانها فصل السودان عن مصر. فاستقال سعد رافضا الإنذار البريطاني، واستبد الملك بالحكم وأجريت انتخابات كانت بداية

---

(١٣٠) وأين موقف الخديو مع محمد عبده في مارس سنة ١٩٠٥ من موقف عمه مع تلميذ محمد عبده في فبراير سنة ١٩٢٤ وصدق أمير المؤمنين علي: (يوم المظلوم على الظالم أشد من يوم الظالم على المظلوم).

(١٣١) مات المنفلوطي سنة ١٩٢٤ في يوم شرع في المجهولون! في قتل سعد، وكان كيوم الحشر عبر عنه شوقي في مرثيته له:

اختـرت يـوم الهـول يـوم وداع ... ونعاك في عصف الرياح الناعي
من مات في فزع القيامة لم يجد ... قـدما نشـيع أو حفـاوة سـاعي

الانتخابات المزورة. ومع ذلك ظفر سعد بالأغلبية فعطل الملك انعقاد المجلس الجديد نحو عام، فانعقد المجلس من تلقاء نفسه في ٢١ نوفمبر سنة ١٩٢٥.

وفي يناير سنة ١٩٢٦ عاد إلى الائتلاف مع سعد، زملاؤه عدلي وثروت ومحمد محمود. وأجريت انتخابات فاز فيها سعد وفاز آخرون في دوائر تركها لهم – واجتمع مجلس النواب برياسته ففوض عدلي [١٣٢] في رياسة الوزارة ثم استقال عدلي سنة ١٩٢٧ ففوض سعد ثروت [١٣٣] وفي وزارته مات سعد [١٣٤] سنة ١٩٢٧. فاستقال ثروت فولي الوزارة مصطفى النحاس (وزارته الأولى) وعادت الأحزاب إلى الاختلاف. فولي الرياسة محمد محمود [١٣٥] (الوزارة الأولى) وانفتح طريق طويل تفاقم فيه الخلاف الحزبي والفساد الملكي حتى قامت الثورة سنة ١٩٥٢.

---

(١٣٢) كان عدلي باشا بنزاهته وحكمته ومكانة أسرته وإصهارها للعائلة المالكة من قديم هو الشخصية المقابلة لسعد باشا في نظر السلطة وهو ابن إبراهيم يكن باشا وعماه خليل خليل باشا يكن وكيل الداخلية في وزارة شرف باشا سنة ١٨٨١ وداود باشا يكن وزير الحربية.

ولي عدلي الرياسة ثلاث مرات سنة ١٩٢١ ليفاوض الإنجليز وسنة ١٩٢٦ بناء على طلب سعد في ائتلاف سنة ١٩٢٦ ثم سنة ١٩٣٠ بناء على طلب الأمة لتجري انتخابات نزيهة المجلس الشيوخ.

(١٣٣) عاد من بعثات الحقوق ليتدرج في النيابة والقضاء إلى وظيفة النائب العام ثم تولى وزارة العدل ثم رياسة الوزارة سنة ١٩٢٢ لما استقال عدلي باشا ثم وليها بناء على الاتفاق مع سعد بعد أن استقال عدلي سنة ١٩٢٧.

(١٣٤) لم يكن شوقي طوال حياته مع محمد عبده ولا مع سعد أو الوفد ولم يلحقه الملك فؤاد بحاشيته، فبقي حرا ولم يتخلف عن تأبين سعد، قال يصف سعدا وهو يطلب الاستقلال من الإنجليز سنة ١٩١٨ بعد انتصارهم في الحرب العالمية الأولى:

أعلمتم قبل موسى من يد ... قذفت في وجه فرعون عصاها
وطئت ناديه صارخة ... شاه وجه الظلم يا قوم وشاها

(١٣٥) محمد محمود باشا ابن محمود سليمان باشا وكان محمد باشا في مطالع حياته عضوا بالجمعية الخيرية وأبوه عضو قديم – رأس محمد باشا الوزارة سنة ١٩٢٨ وأقلق بال الملك فؤاد، ورأسها ثلاث مرات سنة ١٩٣٧ – ١٩٣٨.

أقامت مصر التماثيل لسعد في القاهرة والإسكندرية وحواضر الأقاليم وسمعت الميادين باسمه وجعلت بيته المسمى ببيت الأمة وضريحه في جواره أثرين رسميين.

وظاهر مما سردناه أن زملاء سعد في الجمعية الخيرية كانوا شركاء جهاد موفق تحقق فيه ما سماه الإمام من ربع قرن (الغراس الذي ينبغي أن نعني به الآن).

obeikandl.com

الشيخ محمد مصطفى المراغي

قال الشيخ رشيد رضا في تاريخه للإمام (كان أخلص إخوانه ومريديه يرثون لما يكابده في سبيل إصلاح الأزهر ويأسفون على إضاعة وقته الثمين فيما يعتقدون أنه عبث لا يفيد، فيجمعون على لومه وتثبيطه وإقامة الحجج على استحالة إصلاح هذا المعهد حتى يقتنع، ويحسبون أنه ترك، فإذا فهم يرونه في اليوم التالي قد عاد إلى عمله أنشط ما كان وأشد هما واهتماما فقال بعضهم لبعض في غيبته إننا لنعجب أشد العجب من الأستاذ في علمه وفهمه وسمو عقله كيف يقتنع بأن عمله هذا تعب غير مجد ثم يعود إليه؟ فقال لهم أعلمهم بحاله وهو سعد زغلول إن الأمر ليس باختياره، وإنما هو شعور وجداني بأنه مسخر لهذا العمل أو ملهم به من الله تعالى فهو لا يستطيع تركه.

أخبرني الأستاذ نفسه هذا الخبر. ثم ذكره لي سعد باشا نفسه إذ طالبته يوما بإصلاح الأزهر في عهد رياسته للحكومة مع زعامته للأمة. قال لي: إذا كان الشيخ قد عجز عن إصلاح الأزهر على ما آتاه الله مما لا ندرك شأوه فيه علما وهمة فماذا أستطيع أنا أن أفعل. قلت: إنه كان معارضا من الأمير ومن الشيوخ. وأنت لا يعارضك أحد. قال: إن العلة في نفس المكان. هو غير قابل للإصلاح. فذكرت له ما رواه لي الأستاذ من لوم جماعتهم له ومن جوابه هو عنه. قال هذا صحيح إن عمله كان وجدانا دينيا لا اختيار له فيه).

والحق أن مشاغل سعد تركزت في وضع مصر كأمة ودولة بين دول العالم وجلاء الإنجليز. وأن ولايته الفعلية للحكم لم تزد عن شعور تسعة من ٢/٢٨/ ١٩٢٤ إلى ١١/٢٣/ ١٩٢٤، وأمراض الأزهر بحاجة إلى المتنطسين – وأصابع القصر لا تكف عن العبث بالأزهر.

من أجل ذلك كان من منطق الأشياء، بعد إذ مات الإمام، أن يصلح الأزهر نفسه. وأن يحمل تلاميذ الإمام فيه تبعاتهم في إصلاحه. فجرى الشيخ محمد شاكر شوطا في أعقاب موت الإمام ثم أسكت إعلان الحماية على مصر صوت الإصلاح حتى بعثه الشيخ المراغي من مرقده.

تعلم المراغي في الأزهر على الشيخ أبي خطوة. وحضر دروس التفسير للإمام. ومن إعجاب الإمام به في امتحان العالمية رشحه للقضاء في السودان. فوليه في نوفمبر من نفس العام ١٩٠٤.

وفد الشيخ المراغي إلى مشيخة الأزهر سنة ١٩٢٨ وفود الأستاذ الإمام من قمة القضاء. فهو قد رجع من وظيفة قاضي قضاة السودان ١٩١٩ لوظيفة القضاء الشرعي ثم رياسة المحكمة الشرعية العليا فقضى في أشهر قضايا العصر باقتدار.

ولما ولي المشيخة وجه اهتمامه من أول يوم إلى عمله في رياسة لجنة قوانين الأحوال الشخصية التي انتهت أعمالها بصدور القانون ٢٥ لسنة ١٩٢٩ ونشر بحثا له مع مذكرته الإيضاحية ثم اتجه إلى إعداد قانون للأزهر والتعليم فيه. واتفق مع الملك فؤاد على أن يعد القانون ليبدأ تطبيقه في الموسم الدراسي ١٩٢٩/ ١٩٣٠ – فبقي نحو عام، حتى إذا أيقن من مقاومة الملك فؤاد للإصلاح استقال [١٣٦].

وكان طبيعيا أن يلي مكانة الشيخ محمد الأحمدي الظواهري – وهو صاحب الخطاب المفتوح إلى الخديو سنة ١٩٠٥ لتبدأ الحملة التي انتهت باستقالة محمد عبده – ليكون اللسان الفصيح لصاحب القصر سنة ١٩٣٠، وذراعه الطويلة في إيذاء أنصار الشيخ المراغي في إصلاحه. ففصل من الأزهر آخر تلاميذ الإمام الشيخ الزنكلوني ومدرسته وهم اثنان وسبعون من العلماء الأحراز طلاب الإصلاح (يتصدرهم عبد الجليل عيسى – دراز – شلتوت – العدوى – حامد محيسن – فكري يس).

وأشبهت الليلة البارحة. فأدلى بحديث للصحف قال فيه إن العلماء الذين فصلوا كانوا كبارا في السن ضعافا في العلم.

---

(١٣٦) أدلى الشيخ المراغي بحديث للإذاعة في الذكرى السادسة والثلاثين لوفاة الإمام محمد عبده – وكان أيامئذ يفسر بعض السور – فقال بين ما قال (ليس في رجال تفسير كتاب الله من يضارع الشيخ محمد عبده أو يقاربه في تطبيق آي القرآن على سنن الاجتماع وفي تصور هدى القرآن وفهم أغراض الدين العامة).. وقال (ودعته ليلة سفري للسودان.. فسألني هي معك رفقاء السفر؟ فقلت نعم بعض كتب فقال أو معك كتاب الإحياء؟ فقلت نعم. قال الحمد لله.. ثم قال أنصحك أن تكون للناس مرشدا أكثر من أن تكون قاضيا. وإذا استطعت أن تحسم النزاع بين الناس بصلح فلا تعدل عنه إلى الحكم فإن الأحكام سلاح يقطع العلاقات بين الأسر والصلح دواء تلتئم به النفوس وتداوى به الجرح..

وداعبني مرة إثر خروجي من امتحان شهادة العالمية فقال هل تعرف تعريف العلم فقلت نعم... فقال اسمع مني تعريفا مفيدا: العلم هو ما ينفعك وينفع الناس ثم سأل: هل انتفع الناس بعلمك؟ فقلت لا. قال: إذن أنت لست بعالم فانفع بعلمك تكن عالما..)

ونافح الهلباوي عن الأزهر أمام القضاء. فاختار أولى قضاياه قضية أصغر عالم بين علماء الأزهر الأحياء تتلاحق شهادات الشيوخ جميعا على أنه أعلم نظرائه (محمد شلتوت)[١٣٧].

ثم أرجع المفصولين إلى وظائفهم بعد سنين بكفاح شعبي كف بطش الملك، فدخل الهلباوي بموكليه على الشيخ الأحمدي في مكتبه إيذانا بعصر جديد، عاد فيه الشيخ المراغي سنة ١٩٣٥ [١٣٨] ليبقى سنوات عشرة أصلح فيها قوانين الأزهر وطرائق التدريس ما استطاع، وأنشأ كليات اللغة العربية والأصول والشريعة، وأوفد البعوث الأزهرية إلى إنجلترا وفرنسا وألمانيا، وأحيا تقليد الأستاذ الإمام في التدريس بالرواق العباسي، وألقى الدروس على الملك فاروق – منذ تولي تعليمه وهو ولي عهد.

وتلاحقت دروسه في المساجد الجامعة من جامع عمرو إلى الأزهر إلى مساجد القاهرة والإسكندرية ثم جمعت في مؤلفات [١٣٩] ثم وافته المنية سنة ١٩٤٥ فخلف من بعده مصطفى عبد الرازق في المشيخة وفي رياسة الجمعية ومن بعد مصطفى عبد الرازق ولي لطفي السيد رياسة الجمعية. حتى وفاته سنة ١٩٦٢ فكان آخر تلاميذ الإمام في رياستها.

---

(١٣٧) أعد الدفاع في هذه الدعوى المؤلف بمساعدة الشيخ عبد الجليل عيسى وهما الآن زميلان عضوان في مجمع البحوث بالأزهر.

(١٣٨) احتفلت الأمة احتفالا عاما بعودة المراغي إلى الأزهر وألقى كلمة جامعة في الاحتفال أطال فيها الحديث عن الإمام. من ذلك قوله (علينا ألا ننسى ذلك الرجل الذي نشر الحياة العلمية والنشاط الفكري ووضع المنهج الواضح لتفسير القرآن الكريم وعبد الطريق لتذوق سر العربية وجمالها وصاح بالناس يذكرهم أن العظمة والمجد لا يبنيان إلا على العلم والتقوى.. ذلك هو الأستاذ الإمام محمد عبده.. ومن الوفاء له بعد مضي هذه السنين.. أن نجعل لذكراه المكان الأول في هذا الحفل) والشيخ محمد شلتوت يقول (إن الشيخ المراغي ما خرج بروحه وعلمه وعقله وتفكير، عن أن يكون تلميذ الأستاذ الإمام محمد عبده).

(١٣٩) ألف المراغي كتاب الأولياء والمحجوزين، وبحثا في ترجمة القرآن ورسالة في موضوع الزمالة الإنسانية قدمه لمؤتمر الأديان. وبحثا في أسانيد قانون رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٩ وبحوثا لغوية ودروسا فيها تفسير لسور لقمان والحجرات والحديد والعصر.

الشيخ مصطفى عبد الرازق

مثل مصطفى عبد الرازق فكر الإمام في التجديد وأسلوبه وفلسفته فبقي "ولده الأديب" وبلغ شأوه حتى صار أجمع أهل عصره لخلال الرحمة وأنداهم يدا وأكثر الشيوخ انفتاحا على الفكر العالمي وخدمة للفلسفة الإسلامية وخلد سيرة أستاذه بمحاضرات رفيعة الأسلوب ألقاها على مدار أشهر في الجامعةز

ولد سنة ١٨٨٥ لحن باشا عبد الرازق الذي تعلم في الأزهر ورجع إلى القرية ليدير أملاك عائلته. وكان أبوه وجداه لأبيه قضاة (١٤٠).

ولما بلغ مصطفى حدود اليفاع كان كما كتب عن نفسه (طالبا من صغار الطلبة أيام جاء الشيخ محمد عبده إلى الأزهر، وكان أساتذتنا – عفا الله عنهم – لا يفتأون يذمون لنا الشيخ. ويمثلونه خطرا على الدين وأهله داهما – فتتأثر بذلك عقولنا الطفلة وكنت أفر بديني من أن ألقى الأستاذ أو اسمع لدروسه مع أنه صديق لوالدي. حضرت درسه مرة لأشهد كيف تشيه وجوه الملحدين وتشيه معها عقولهم وقلوبهم. فلما رأيت الرجل في الرواق العباسي وسمعته يفسر كتاب الله قلت منذ ذلك اليوم إن كان هذا إلحادا فأنا أول الملحدين.

إن كان رفضا حب آل محمد فليشهدوا الثقلان أني رافضي

---

(١٤٠) كان حسن باشا بعد الرازق عضو مجلس الشورى عن محافظة المنيا مات في ٢٥ ديسمبر سنة ١٩٠٧ وهو والد الباشوات حسن (الصغير)، ومحمود، ومصطفى، وعلي وإسماعيل وكانت دراهم خلف قصر عابدين، منتدى للفكر الإسلامي والوطني، وكانوا في غالب أمرهم مناقضين لفكر صاحب القصر – ومنها خرج كتاب الشيخ علي عبد الرازق (الإسلام وأصول الحكم) سنة ١٩٢٥ – وهو قاضي شرعي – فهدم آمال الملك فؤاد في خلافة المسلمين بعد أن ألغيت في تركيا سنة ١٩٢٣. فقدم الشيخ علي متهما بالخروج على القانون فنزعت هيئة كبار العلماء منه شهادة العالمية الأزهرية وزالت صفته لولاية القضاء الشرعي. أتاح الهلباوي له بعد أعوام من فصله أن يترافع – كمحام شرعي – معه في قضية معارضة من الأمير محمد علي – الوصي على العرش فيما بعد – ضد الملك فؤاد في حكم استصدر، ليحل محل الأمير في نظارة وقف وقفته أمه. وكان الملك قد عزل من الأزهر عشرات العلماء أكبرهم الزكلوني وأصغرهم تلميذه محمود شلتوت، وعمل شلتوت محاميا مع علي عبد الرازق والهلباي في القضية وانتصروا على الملك. وكان المؤلف رابعهم في هذه القضية. وقد ولي علي باشا وزارة الأوقاف ممثلا لحزب الأحرار الدستوريين بعد أخيه مصطفى.

ولما تخرج في الأزهر سنة ١٩٠٨ بعثته أسرته لمزيد من الدراسة في فرنسا. فأعد رسالة عن الإمام الشافعي وراسل صحيفة "الجريدة" من فرنسا وفجأته الحرب العالمية الأولى هنالك، ثم رجع فتولى رياسة القسم العربي بالجامعة المصرية، وعمل في إدارة الأزهر، وحقق الإنجليز معه إذ مر "ببيت الأمة" وترك بطاقة لزوج الزعيم سعد زغلول عند نفيه للمرة الثنية، مع أن عائلة عبد الرازق كانت من أعمدة حزب الأحرار الدستوريين تخاصم سعدا – وراجعه الوزير لينكر الذهاب، فأقر به مرة ثانية ففصله. وعلم رئيس الوزراء – ثروت – فاحترم وفاء التلميذ الصغير للتلاميذ الكبار على الإمام وأعاده ولما صدرت صحيفة السياسة ثم السياسة الأسبوعية صارتا منبرا لآرائه (١٤١).

ترجم إلى الفرنسية مع المسيو ميشيل برنار سنة ١٩٢٥ رسالة التوحيد (للأستاذ الإمام) وأثره ظاهر في تقديم برنار للترجمة كما هو ظاهر في كتاب المستشرق تشارلز أدامز عن الإسلام والتجديد في مصر.

ولما أنشئت جامعة القاهرة تولى تدريس الفلسفة الإسلامية فبلور فكر الإمام في "استقلال الفلسفة الإسلامية بمصدريها، وهما أصول الفقه التي وضعها الإمام الشافعي في أواخر القرن الثاني، وعلم الكلام" ووجه تلاميذه ليسبروا أغوارها، ومنهم الدكتوراه علي سامي النشار – وعثمان أمين، فصار الأول شيخ ما سموه (مدرسة الإسكندرية الحديثة) والثاني أستاذ الفلسفة في جامعة القاهرة.

ولي مصطفى باشا وزارة الأوقاف مرات باعتباره عضوا في حزب الأحرار الدستوريين، ولما مات شيخ الأزهر المراغي لفت موته الأنظار إلى تعيين التلميذ الآخر لمحمد عبده، وآثر مصطفى عبد الرازق مشيخة الأزهر على الوزارة والباشوية، فنزل عنهما.

***

كان يمتاز بالانسجام الكامل في مخبره ومظهره وخلْقه وخلقه ويسره وورعه يقول له طه حسين إذ كان يدفع نفقات الدراسة الجامعية لتلاميذ يعجزون عن دفعها "توشك ألا تجد شيا من مرتبك آخر الشهر" ويقول لطه: (أتريد أن نتركهم يصدون عن العلم ونحن نرى)!

---

(١٤١)

ويقول طه حسين عن أسلوبه (أنت لا تجد معنى نافرا أو فجا لم يتم نضجه قبل أن يعرف عنه، وأنت لا تجد لفظا نابيا عن موضعه، أو كلمة قلقة في مكانها، وإنما كان كلامه يجري هادئا مطمئنا كما يجري الجدول النقي).

وطه حسين وهيكل ومحمود عزمي ومنصور فهمي والزنكلوني والمراغي وشلتوت رجال شاركتهم معارك حياتهم دار العلم التي اشتهرت في مصر في النصف الأول من القرن. دار آل عبد الرازق.

كانت مشيخة مصطفى عبد الرازق للأزهر سنة ١٩٤٥ (١٣٦٤) تالية لمشيخة المراغي الثانية التي طالت عشر سنوات حاول فيها الشيخ المراغي الإصلاح ما استطاع، فسار على دربه نحو عامين حتى مات سنة ١٩٤٧ كمثله في ميدان إصلاح الأزهر.

وفي مشيخة المرحوم الشيخ محمود شلتوت تلميذهم الفكري وتلميذ الزنكلوني الفعلي صدر قانون سنة ١٩٦١ فأنشأ في الأزهر كليات للهندسة والطب والزراعة والتجارة. وصير كلية الشريعة كلية للشريعة والقانون.

وبهذا التجديد للهيكل تغير وجه الأزهر لكنه بقي على عهده الممثل العظيم لروح مصر وفي كل منها أثر من الآخر.

وبقي محمد عبده في التاريخ الحديث كالجبل العالي الذي يملأ الأفق ويدعو الناظرين للصعود. أو كرافد للنيل، جديد، يسقي شاربيه من ينابيع الحنيفية السمحة، فيوضا صافية من الحرية لا التعصب، والاجتهاد لا التقليد، والاتباع السلفي لا الابتداع غير المسئول.

***

روى الشيخ رشيد رضا عن الشيخ المراغي قوله (أعتقد أنه إذا جاوزنا عصر السلف لا نجد رجلا رزق فهما في هداية القرآن ووسع صدره أدق معانيه الاجتماعية والعمرانية مثل الإمام محمد عبده. لقد وهبه الله شروط الإمامة الدينية جميعها).

وروى الإمام أحمد بن حنبل عن النبي ﷺ: "إن الله عز وجل يهب هذه الأمة على رأس كل مائة سنة رجلا يقيم لها أمر دينها) وقال (فكان على رأس المائة الأولى عمر بن عبد العزيز وأرجو أن يكون على رأس المائة الثانية الشافعي رضي الله عنه).

ونحن نرجو أن يكون على رأس المائة الثالثة عشرة محمد عبده.